حول مبحث القيم : نظريات غربية غير واقعية والبحث عن قيم واقعيـــة

دكتـــور

عبد الرازق حجـــاج

من بين عـــثرات الفكر الأوربى ومن دراسة لانتقادات فلسفـــات القارة الأوربية أحدها للأخر ، ومن الاتجاهات غير الواقعية أى غير المراعيـة للطبيعة البشرية ومكونات خلقتها ... من هذا كله ظهرت أمام أعيننـــا ضرورة الاتجاه الى تراثنا لنأخذ منه نظرية واقعية فى القيم ، وسنتنـــاول فى هذا البحث :

أ ــ نظرية كانت Kant فى الأخلاق والجمال واقتقادها للبعـــد الاجتماعى .

ب ــ نظرية جان بول سارتر وتطرفها فى الفردية ومبالغتها فى تقريـــر حرية الفرد وهو الأمر المرتبط بالغاء الوجود الالهى والذى أدى الـى عدم وجود معايير واضحة ومحددة للقيم .

ج ــ نظرية رالف بارتون برى وقيامها على المصلحة أو الاهتمام وهو الأمـــر الذى ينتهى الى أنانية سواء أنانية الفرد أو الجماعة .

د ــ نظرية ماركس وانجلز وقد انتقدها أحد الماركسيين الجدد وهو ايريـــخ فروم وسوف نقدم انتقاداته ، كذلك سنتحدث بايجاز عن انتقـــادات جورباتشوف للتطبيق الماركسى فى الاتحاد السوفييتى ، وتتركـــز انتقاداتنا على النقطة المتصلة بتبعية القيم لنمط البناء الاقتصادى .

١ ــ نظرية كانت Kant في الأخلاق والجمال وافتقادهما للبعد الاجتماعي الأصيل :

يفرق كانت بين اللذيذ وبين الجميل ، فاللذيذ شخصي ولا أراني فيه بحاجة الى موافقة الآخرين ، أما في حالة الحكم الجمالي فانني أعرف أن ماهو جميل في نظري وسمعي جميل لدى غيري ، وذاك ما يسميه العمومية أو الكلية ، فأنا مقتنع بأن ملكتي الخيال والفهم ــ وبتآلفهما ولقائهما يحدث ويتم الحكم الجمالي ــ انما هما مؤتلفان لذى غيري كما هو حالهما لدي .

لكن من حقنا أن نلاحظ أن الكلية الكانتية لا تتضمن بعدا اجتماعيا حقيقيا ، لا تتضمن الاشارة الى معايير خارجية موضوعية قائمة في استقلال عن الذات ، ويجد الناس أنفسهم ملتزمون باتباعها ، وانما هي :

أ ــ عمومية ذاتية ، أي أنها تقوم على أساس ذاتي هو تفاعل ملكتي المخيلة والفهم ، ذلك التفاعل أو الالتقاء اللاغرضي ، وكما أنه لدى بلا غرض فهو أيضا لدى غيري ــ هكذا افترض كانت ــ بلا غرض ، وحين أصف شيئا بأنه جميل أراني منتظرا من الناس جميعا نفس هذا الحكم (١) .

ب ــ هي عمومية صورية ، وهذا ما نستنتجه من اللحظة الرابعة ــ من لحظات الحكم الجمالي ــ " الحكم من منظور الجهة أي الامكان أو الضرورة " ، فكانت ينسب الى الجميل علاقة ضرورية بالارتياح أو الرضا ، وهي ضرورة ترجع الى فكرة الحس المشترك

The condition of neccessity advanced by a judgement of taste is the idea of a common sense

---

1- Kant : Oritique of Judgement. Trans by J. G. Meredith. p. 58 - 60.

2- Ibid p. 82.

ثمة احساس عام تشترك فيه سائر الذوات ويجعل فى الامكان تبادل الانطباعات الجمالية بينهما ، لا يعود كانت اذن الى الموضوع الجميل نفسه فى اقامة صفة الكلية لأن المهم هو الذات بما تتضمنه من ملكات ، وما الموضوع الا مجرد مناسبة An occassion ، والحس المشترك يرتد الى الذاتية ولذا فانه يوقع فى اجتماعية صورية ، انه المعيار المثالى الذى يجعل من حكمى الذوقى الخاص حكما نموذجيا معياريا ، ولا أتوقع بل لا أسمح لأحد أن يصدر حكما مغايرا لهذا الحكم على أساس افتراض لا مبرر له أنى أتكلم بلسان الآمر الجمالى وأصدر عنه فى حكمى الجمالى ، وفكرة الحس المشترك عند كانت موجهة لحساب الفرد وتجعل الآخرين ملزمين بالاتفاق معه فى حكمه ، وليست موجهة كمعيار اجتماعى يلزم الفرد بمراعاته فى أحكامه الجمالية .

وقد انتقد شارل لالو لا واقعية فلسفة كانت الجمالية مشيرا الى أن نفس السمة قائمة فى نظريته الأخلاقية فقال :

" وبالرغم من أن كانت قد أكد بوضوح أنه بدون الحياة الاجتماعية الواقعية لا يمكن أن يكون هناك فن فان جمهورية الغايات الاستطبقية ــ التى ركز فيها الحركة الذاتية لذوقنا كما فعل من قبل بخصوص الأخلاقية ــ لا تشبه فى شىء مجتمع الاجتماعيين الحديثين الذى هو عبارة عن تجمع واقعى ومحدود الى أكبر الحدود ، وتتقبل وجود مجموعات أخرى أجنبية خارجة عنه . أما جمهورية كانت فانها العمومية المثالية البحتة التى لا تعرف أى استثناء فى أى كائن مفكر موجود فيتسق الحقيقة أو ممكن الوجود انها جمهورية حق وليست جمهورية واقع بل أسوأ من ذلك أنها جمهورية مضادة للحقائق

1- Ibid p. 82.

الواقعية (١) .

٢ ـ الحرية المطلقة لدى جان بول سارتر :

تقوم فلسفة سارتر أول ما تقوم على رفض النظرة الكانتية للقيم وعلى أن القيم ابداع انسانى خالص ، وليس ثمة قواعد قبلية مسبقة يجب أن تفرض على الانسان وهو ماض فى طريق ابداعه للقيم ، وقد يخيل لنا أن ثمة بعدا اجتماعيا لنظرة سارتر للقيم فى كتابه (الوجودية فلسفة انسانية) لكنه فى حقيقة الأمر ليس ذلك البعد الاجتماعى الذى يجعل ابداع القيم عملا مشتركا بين الفرد وجماعته وانما هى فحسب اشارة الى أن الانسان الفرد ملتزم مع (الانسانية) جمعاء فى أن يختار ، ولا يستطيع تجنب الاختيار ـ يقول سارتر (الانسان منخرط فى وضع منظم .. اذ هو ملتزم مع الانسانية جمعاء وبحيث لا يستطيع مطلقا تجنب الاختيار فهو اما يبقى عفيفا مثلا واما أن يتزوج وعندئذ تكون عائلته اما ذات أبناء واما دونهم . انه على كل حال لا يستطيع سوى الالتزام بشكل تجاه تلك المسألة .. قد يختار الانسان دون أن يلجأ الى قيم موضوعية مسبقة ولكن هذا لا يعنى أنه يتصرف حسب هواه ، بل علينا أن نشبه الاختيار الاخلاقى ببناء أثر من الآثار الفنية) .

ونتساءل كيف يستطيع الانسان فى مجال الأخلاق أو فى مجال الابداع الفنى ـ كيف يستطيع الالتزام وكيف يختار دون أن يلجأ الى قيم موضوعية مسبقة ؟

الحق ان كل ما يذكره سارتر فى (الوجودية فلسفة انسانية) لا يعدد ردة عن تلك الحرية المطلقة التى أعطاها للفرد وهو يبدع القيم فى كتابه (الوجود والعدم) .. كل ما فى الأمر انه يلتمس فى ارتباط الفرد بالانسانية

١ـ شارل لالو (مبادىء علم الجمال) ترجمة مصطفى ماهر ، مراجعة د. يوسف مراد . ١٩٥٩ .

جمعاء ! لا بمجتمع واقعي محدود ذريعة لضرورة أن يحدد الفرد موقفه وأن يختار سلوكه وألا يتوقف ، وسارتر في طريق تشييده للحرية الفردية واشادته بها لا يجد عقبة أمامها الا القواعد العقلية القبلية التي توضع مسبقا للسلوك سواء تمثلت هذه القواعد في الفلسفة الكانتية أو في المسيحية أو غيرهما لكنه لا يقدم لنا موضوعية بديلة وانما يزيد الامر سوءا بالحرية الفردية المطلقة . ولنستمع اليه وهو يرفض القواعد والمعايير في الابداع الفني . يقول (هل من فنان صنع لوحة ما ولامه الناس لأنه لم يستوح قواعد وضعت قبليا ؟ هل قالوا مرة ما هي اللوحة التي يجب أن تصنع ؟ من البديهي في نظرنا أن لا وجود للوحة معينة ومهيأة للصنع ، بل الفنان يشرع في بناء لوحته ، وان اللوحة الواجب صنعها هي تلك التي يصنعها بالفعل . ومن البديهي أيضا أن لا وجود لقيم جمالية قبلية أي موضوعية من قبل أن تتحقق على يد الفنان ، بل ان هناك قيما فوق ذلك في تماسك اللوحة من الداخل وفي العلاقات التي نلمسها بين ارادة الخلق عند الفنان من جهة وبين نتيجة خلقه من جهة أخرى فليس من أحد يستطيع الحكم على مستقبل فن التصوير مثلا لأنه لا يحكم على فن الا بعد تكوينه . واذا ذكرنا لوحة لبيكاسو فأننا نقول إن بيكاسو قد بنى ذاته أثناء قيامه بالعمل الفني ، وإن مجموع لوحاته مندمج بحياته ذاتها . وما قلناه في الابداع الفني يصدق أيضا على المجال الاخلاقي . فالقدر المشترك بين الفن والاخلاق هو أننا في كلتا الحالتين أمام ابداع وابتكار حتى ليخرج عن حد الطاقة التعيين قبليا لما يجب فعله . وأشعر أني بينت لكم ذلك بشكل كاف عندما حدثتكم عن التلميذ غداة جاء يستشيرني (هل يذهب الى الجبهة يقاتل مع المناضلين ضد النازي أم يبقى مع والدته ليعولها وليس لها من عائل سواه) وقد كان في وسعه الالتجاء الى جميع الاخلاق من كانتية ومسيحية وما شاكل . لكنه اضطر أخيرا أن يبتدع شريعته بذاته . ان ذلك الرجل اذا بقي مع والدته متخذا العاطفة أساسا أخلاقيا أو اذا التحق بالقوة المجاهدة مؤثرا بذلك التضحية فنحن لن نقول عنه إنه قام باختيار مجاني à etè gratiuit [1] أي لن نقول عنه انه قد اختار عشوائيا .

١ـ جان بول سارتر (الوجودية فلسفة انسانية) ترجمة حنا دميان ـ بيروت ص ٥٠ ـ ٦٠ .

ونحب أن نؤكد أن ثمة طريقا واحدا لتأكيد موضوعية القيم وهو ألا نجعلها محصورة فى فعل الذات وحده وانما نبحث لها عن ضوابط موضوعية يتحدد بها وجودها ، أول هذه الضوابط أن القيم ليست مستغنية عن الأشياء موضوع التقييم والا فماذا نقيم لو أسقطنا تلك الأشياء ؟ انها أى القيم ذاتية ـ موضوعية ، كما أن للقيم معايير نلتزم بها فى سلوكنا الأخلاقى وفى ابداعنا الفنى وتذوقنا الجمالى وفى ادراكنا لما هو حق على أنه كذلك ، وهذه المعايير تنشأ على أرض مجتمع محدود نتيجة لتفاعل أفكارنا ونحن نعيش فى هذا المجتمع ، وأصحاب الحس الأخلاقى الراقى وكبار الفنانين وأساتذة النقد والمتزودون بالحس الجمالى هم الذين ينشئون المعايير الأخلاقية والجمالية فيلتزم بها الناس والفنانون عن حب ورضا ٠

وهو طريق ايجابى ـ يجهد الفيلسوف الذى يختاره عقله حتى يحدد معالمه ، وسارتر عندما يجعل كل همه معارضة الأحكام القبلية المسبقة ليعطى الانسان الفرد حرية ابداع القيمة ... حرية اختيار سلوكه وشكل عمله الفنى انما يسلك طريقا سلبيا قائما على الرفض ... رفض الاحكام القبلية ، وحديثه فى هذا الكتاب (الوجودية فلسفة انسانية) عن ضرورة الاختيار لايقلل من تلك الحرية المطلقة التى أعطاها للفرد ، وتتسائل : ماذا كان يمنع الشاب من أن يختار طريقا آخر غير البقاء مع والدته ليعولها وغير الذهاب الى جبهة القتال ؟ كان فى امكانه أن يترك كلا الاختيارين مادام الأمر متروكا لعواطفه واختياره وليس ثمة معايير تلزمه بالسلوك الصحيح ، فى امكانه مثلا الانضمام لجماعة من رفاق السوء اللصوص أو قاطعى الطريق وسارقى البنوك ٠ وهل كان ضروريا لطرح المعايير القبلية الكانتية أن نتخلى عن أية معايير ؟ أليس من الممكن أن نصل الى معايير تتشكل واقعيا فى المجتمع ؟

لابد فى الواقع وحقيقة الأمر من معايير نلتزم بها عن طواعية واختيار بالسلوك الصحيح فى مجال الأخلاق ٠ وفى مجال الفن ليس ثمة فى الواقع تلك الحرية المطلقة فابداع بيكاسو للوحاته التجريدية لم

يكن ابداعا من فراغ وانما كانت فنون التصوير قد تطورت تدريجيا ووصلت الى صورتها التجريدية التى وافق عليها بيكاسو مع غيره من الفنانين والتزموا بمعايير للابداع الفنى التجريدى يراعونها جميعا على اختلاف بينهم فى نوع التجريد ، مما يسمح فى نفس الوقت بمجال للحرية الفردية وتحقيق الذات وليس ثمة تعارض ـ فى ماهية الابداع الفنى ـ بين تحقيق الذات وبين الالتزام بالمعايير الجديدة أو القديمة .

ونحن لا نشك فى أن ثمة ارتباطا بين الحرية المطلقة للفرد مبدعا للعمل الفنى أو للسلوك أو مدركا لهما وبين نفى سارتر للألوهيه .

L'existence de L'Homme exciut L'existence de Dieu

وهو يؤكد فى هذه العبارة وفى كل سياقات الفصول الأخيرة من كتابه الضخم (الوجود والعدم) حرية الانسان المطلقة وأن هذه الحرية تستلزم نفى كل ما يعطل حرية الفرد (١) .

بيد أنه لا ينبغى أن تغرينا العبارة الشهيرة (الوجود يسبق الماهية) بالتعميم فنقول كثيرا (الوجوديون يذهبون الى كذا) (٢) فالحق أننا أمام وجوديات متعددة ولسنا أمام وجودية واحدة ، والغالب على الفلاسفة المتأثرين بفكر كيركجورد أنهم مؤمنون يقرون الوجود الالهى ، بل ويقيمون صلات قوية بين حرية الفرد وبين الألوهية فكارل جاسبرز يرى أننى أشعر دوما بأن حريتى هبة لى من مصدر متعال تتجه اليه ذاتى الينبوع دائما ، ولاتعارض عنده بين الحرية وبين السلطة ـ تعبير السلطة

---

(١) انظر : سارتر (الوجود والعدم) ترجمة د. عبد الرحمن بدوى .
وكتاب د. رجاء عيد (فلسفة الالتزام فى النقد الأدبى) ١٩٧٤
دار الثقافة ص ١٤١ .

(٢) قارن د. شكرى عياد (دائرة الابداع مقدمة فى أصول النقد)
دار الياس العصرية ص ٨٠ .

يعنى الدين والجماعة والتراث ـ ولا بين حرية الفرد وبين الآخرين ، فالسلطة والآخرون هما الأرضية التى أمارس عليها حريتى فحريتى لا تظهر الا بالاحتكاك والقبول والرفض وعن طريق شعور الذات بالتوتر عندما تنتهك الأجهزة حريتها وبالارتياح والتواصل مع الذوات بصفة أساسية ، وليس ثمة رفض مسبق للالتزام بالقوانين لدى جاسبرز ، انى أتبناها وكأننى صائغها وصانعها .

ومعارضة جاسبرز وجابريل مارسل (فى كتابه الوجود والملكية) للماركسية معارضة جذرية أما سارتر فتشعر بالأصداء الماركسية فى كتابه (مواقف) مثلا ، ذلك أن سارتر يفرق بين الكاتب ـ كاتب النثر ـ وبين الرسام والشاعر والنحات والموسيقى ، فهو يقول (ان الكاتب يستطيع أن يرشدكم ويستطيع اذا ما وصف لكم كوخا أن يريكم رمز المظالم الاجتماعية وأن يثير سخطكم . لكن الرسام أخرس فهو يقدم لكم (كوخا) هذا كل شىء ، وأنتم أحرار فى أن تروا فيه ما تشاءون . ولن يكون هذا الكوخ أبدا رمز البؤس اذ ينبغى ليكون كذلك أن يكون اشارة فى حين أنه شىء ..... .

ان المعانى لا ترسم ولا تموسق ـ أى لا تتحول الى موسيقى ـ فمن يجرؤ فى مثل هذه الشروط على مطالبة الرسام أو الموسيقى بالالتزام ؟ أما الكاتب فهو على النقيض من ذلك يتعامل بالمعانى . وهنا أيضا لابد من التمييز فميدان الاشارة هو النثر ، أما الشعر فهو من جانب الرسم والنحت والموسيقى ... الشعر لا يستخدم الكلمات بالطريقة ذاتها بل انه لا يستخدمها مطلقا بل أقول انه يخدمها ، ان الشعراء أناس يرفضون (استخدام) اللغة ... والحقيقة أن الشاعر قد ابتعد دفعة واحدة عن اللغة ـ الأداة ، واختار نهائيا الموقف الشعرى الذى يعتبر الكلمات أشياء لا إشارات)[1] . سوف نتعرض للنص بالنقد لكننا نقرر بداية أن سارتر

١ـ سارتر (ماهو الأدب) الجزء الأول من كتاب (مواقف) ترجمة جورج طرابيشى ـ بيروت . ص ٥٣ .

يستخدم تعبيرات واسعة ليست محددة وهو متأثر بأفكار متعددة ومتباينة : متأثر بالماركسية ومتأثر بفلسفة كانت الأخلاقية ـ من ناحية الصياغة أحيانا ، مع أنه يعارض الاحكام القبلية ، فهو يرى أن الوجود الانسانى محدد بالحرية والمسئولية والالتزام فالانسان ليس شيئا آخر سوى حريته وهو محكوم عليه بالحرية ـ ولا ندرى من الذى حكم عليه بالحرية!؟ .. لكن سارتر على أية حال صائغ ألفاظ ماهر (١) ، والالتزام لا يعنى الالتزام بمعايير خارج الذات معايير ينشؤها أصحاب الحس الأخلاقى مثلا وانما هو التزام الفرد بما يراه هو ، وأنا اذ أختار انما أختار لغيرى من الناس .. أختار للناس جميعا ، وهنا يظهر الاطار الكانتى ويظهر مالدى سارتر من ابتعاد عن الواقعية فى نفس استعارته لكلا القبعتين : قبعة ماركس وقبعة كانت ، فالواقعية التزام بمعايير موضوعية تقع خارج الذات الكانتية أو خارج الفرد الذى يسبق وجوده ماهيته ، أو خارج منطقة البناءات الفوقية التابعة لنمط البناء الاقتصادى . باختصار التزام سارتر التزام بدون التزام . ولنعد الى النص السابق لنقرر الملاحظات التالية :

١ ـ تفرقة سارتر بين اللغة ـ الأداة وبين اللغة الشىء تفرقة طيبة فالفنان يعالج أدوات تعبيره (ألفاظا أو نغمات أو ألوانا) لذاتها لا كأدوات أو رموز تشير الى معانى وأفكار كما هو الحال فى الكتابات العلمية بحيث تصح الترجمة وتؤدى نفس الغاية ، وانما نجد المعانى فى الفنون جميعا ممتزجة ، باللغة والواسطة مختلطة بكيانها مشعة منها نفسها لا واقفة خارجها .

٢ ـ وفى هذا تختلف أيضا لغة الحياة اليومية ... لغة الاستعمال عن اللغة فى الادب شعرا ونثرا ، وسارتر محق فى قوله (إن الانسان الذى يتكلم يقف وراء الكلمات قرب الموضوع أما الشاعر فيقف عندها .

١ـ فى مسرحية الذباب لسارتر يقول أورست لالكترا : اننى حر يا الكترا ، انقضت على الحرية انقضاض الصاعقة .

انها بالنسبة لذاك اصطلاحات مفيدة ... أدوات تهترىء شيئا فشيئا ثم ترمى عندما لا تعود صالحة أما بالنسبة للثانى ـ الشاعر فهى أشياء طبيعية تنمو بشكل طبيعى فوق الأرض كالعشب والأشجار) التفرقة بين لغة العلم ولغة الحياة اليومية ـ على ما بينهما من اختلاف ـ وبين اللغة أو الاداة بصفة عامة فى الفن أمر متفق عليه ، لكننا لا نوافق سارتر على عدم إدخاله النثر الأدبى ضمن الفنون فيتمتع بخاصية اللغة والأداة فيها .

٣ ـ ومن الذى قال إن الرسام أخرس يقدم الكوخ فحسب (ونحن أحرار فى أن نرى فيه ما نشاء) الحق ان الرسام يقدم الكوخ محملا بالمعنى الذى يريد أن يوصله لنا ، بغير صراخ وبغير مباشرة ، كذلك يفعل كاتب الرواية والمسرحية والقصيدة ، وليس صحيحا ما يقوله سارتر فى أن (الانفعال والهوى ـ وكذلك الغضب والسخط الاجتماعى والكراهية السياسية ـ هما مصدر كل قصيدة لكنهما لا يعبران عن نفسيهما فيها) الصحيح أن المصدر : الغضب والسخط الاجتماعى يظهر فى القصيدة مثلا . هل كان سارتر يريد جعل الفنون مجرد أشكال بلا أية معانى أوكيف يتسق هذا مع قوله (لا وجود للفن الا من أجل الغير وعن طريقه) (١) وما معنى هذين التعبيرين : نجاح وفشل فى قوله (من البديهى أن فى كل شعر شكلا من أشكال النثر أى من أشكال النجاح وبالمقابل فان النثر الأكثر جفافا يحتوى دوما على شىء من الشعر أى على شكل من أشكال الفشل) لعل سارتر يعنى أن فى كل شعر تعبيرا عن معنى أو قضية ولذا ففى كل شعر شكل من أشكال النجاح ، وبهذا يكون متراجعا عما سبق أن قرره .

١ـ المرجع السابق (ما هو الادب) ص ٨٤ .

٣ ـ فكرة رالف بارتون برى (١٨٦٧ ـ ١٩٥٧) :

من أهم سمات موضوعية القيم وتحريرها من قبضة الذات أن يكون لها بعد اجتماعى ، وقد تعودنا فى الفكر الغربى أن نرى ما يتحدث عنه المؤرخون على أنه يمتلك بعدا اجتماعيا لدى هذا الفيلسوف أو ذاك سرعان ما يكشف التحليل الدقيق عن بعده عن الاجتماعية الصحيحة . ولننظر الى فكرة الفيلسوف الأمريكى عن القيم .

القيمة عند برى تقوم على المصلحة أو الاهتمام Interest ، وللاهتمام عنده معنى سيكولوجى وآخر بيولوجى ـ يقول (فى تحديدنا لمعنى القيمة سوف نرتبط بالحياة المؤثرة : الرغبة والشعور والارادة وكل الحالات العقلية وكذلك الافعال والاتجاهات ، ولذلك فمن الضرورى أن نتمسك بمصطلح نستعمله للدلالة على السمة الخاصة للحياة والعقل معا) (١) .

التركيز على الاهتمام والمصلحة تركيز على المنفعة كما أنه يتضمن تركيزا على الحسى المباشر ، وهو أمر تأثر فيه برى بالبيئة الأمريكية ومناخها الفكرى العام كما أنه تأثر فيه بالفلسفة البراجماتية (الأمريكية) وتركيزها على المنفعة معروف ولسنا ضد المصلحة ولا نعارض الاشباع الحسى وانما نقول انه عندما يكون الحديث متعلقا بالقيم العليا يجب أن نرتبط بمعايير وأحكام نأخذها ممن هم (أعلى) ويجب من ناحية أخرى أن يحدث اتجاه ناحية السروح .

وقد اتسع مفهوم القيمة عند برى على هذا الأساس فجعل الشىء القيم هو الشىء الذى يشبع حاجاتنا الحيوية والسيكولوجية . ولم تنزع القيم العليا عنده عن كونها حالات خاصة لهذا الاهتمام فهو عندما يتعرض

1- Perry (Ralph Parton) General Theory of Value. 1950, p. 27.

للقيمة الجمالية مثلا يميز بين نوعين من الأفعال : زراعة الخضروات ويولدها الجوع وزراعة الزهور وتلك ينميها الاهتمام برفاهة الحس وهى عمل من أعمال الفنون الجميلة لأن الاستهلاك الذى تنتج الزهور من أجله هو المصلحة الجمالية لرفاهة الحس (١) .

واستمتاع الانسان بمشاهد الطبيعة لا يحركه شيء لأن يغير منظر الارض أو يقيم معبدا على الغدير أو يبنى منزلا ، وهو راض أن يأخذ الاشياء كما هى ولكن عمله مع ذلك ديناميكى حركى .. ان ملكاته مشغولة ومنهمكة انكبابا وقصدا .

ولا ننكر أننا نجد عند برى ربطا للقيمة الأخلاقية - خاصة - بمجموع الناس ، يقول (وان أى مأرب خيرا بالمعنى النوعى الجامع الشامل عندما يكون موضع اهتمام ايجابى ، وهو خير من الوجهة الخلقية بالمعنى الخاص عندما يكون الاهتمام الذى يجعله خيرا محققا لمقتضى التناسق أى البراءة والتعاون (٢) .

لكن ارتباط القيم العليا عند برى بمجموع الناس ليس على أساس وحدتهم فى الحكم ولا على أساس اتجاههم نحو معايير واحدة يتفقون عليها وانما هو الاساس القائم فى المصلحة والاهتمام . ولم يستطع برى أن يتحدث عن الحكم كسمة ضرورية للقيم تميزه عن مجرد الادراك .. لم يستطع ذلك لأنه - فى نظريته عن المعرفة وكيفية الادراك - أسقط الوعى وأبقى على الفعل والاستجابة فلم يعد أمامه ثمة ضرورة لافتراض وعى يتم به فعل الحكم والتقييم وانما هى المصلحة أو الرغبة أو الحاجة (وكلها عنده مرادفات للاهتمام) . ولذلك فاننا نراه فى موضع آخر من كتابه الرئيسى (النظرية العامة للقيمة) يجعل القيم الاجتماعية (القيم العليا) والقيم

١- رالف بارتون برى (آفاق القيمة) ترجمة ٥- عبد المحسن عاطف سلام ، النهضة المصرية ص ٤٣١ .

٢- المصدر السابق ص ١٤٦ .

الغريزية كليهما يستحق كلمة قيم ويرفض إبعاد ما يسمى قيمة شخصية من دائرة القيم لكن الصحيح هو أن ما يسمى قيما شخصية ليس الا تعبيرات عن رغبات أو اتجاهات وميول فردية ولذا لا يصح إدخالها ضمن القيم بالمعنى الصحيح ، إنها مجرد (هوى) .

٤ ـ الماركسية :

الماركسية فلسفة للمجتمع لا للفرد .. فلسفة تضع فى قاعدة البناء الهرمى للمجتمع القوى المادية والاقتصادية الخاصة به وتنظر إلى الايدولوجيات التى فى قمة الهرم على أنها مجرد صورة ومظاهر لهذه القوة .

ومن الملاحظ أن هذه النظرة قد ألغت الفرد من حسابها ، وجعلته كالترس فى دولاب كبير هو المجتمع بآلاته ووسائل إنتاجه (١). مع أن الاصل فى نظريات القيم أن تبدأ من الفرد باعتبار أن التقييم تقييم ذاتى يقوم به الفرد وهو يصدر حكمه على سلوك ما أو قضية معينة ، وليس ثمة مكان عند الماركسيين لابداع موضوعات القيم ابداعا حرا لأن القيم تظهر كنتائج أو بناءات فوقية للنشاط المادى والاقتصادى ولذلك فان الماركسيين يختارون من روائع الاداب العالمية نماذج معينة يرون تفوقها وامتيازها لا لشىء الا لأنها تعبر عن مصالح الطبقة العمالية (البروليتاريا) وتطلعاتها . لقد هبط الماركسيون بالانسان الواعى المتأمل الى درك سفلى عندما جعلوا همه موجها أصلا الى تحقيق حاجاته الحيوية . يقول انجلز (تعتمد الحياه ابتداء على المأكل والمشرب والمأوى والملبس الى آخر ما هنالك ولذلك استهدف العمل التاريخى الأول انتاج الوسائل الخاصة بسد هذه الحاجات أى استهدف الانتاج الخاص بالحياة المادية نفسها ، وكان هذا فى الواقع عملا تاريخيا بل شرطا أساسيا للتاريخ بأسره . ونحن

---

١ ـ أ.د. يحى هويدى (مقدمة فى الفلسفة العامة) مدخل الى مبحث القيم ـ الطبعة السادسة . ص ٢٩١ .

مضطرون اليوم كما اضطررنا على مدى ملايين السنين الى مراعاة هـــذا الشرط يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى نبقى على الناس رمقهم) . واذا كان السعى الى الطعام أو اقامة البناء الاقتصادى هو هم الماركسيين الأول فان المثل الفكرية والمعتقدات الايدولوجية والاداب والفنون منوطة عندهم بوظيفة محددة : انها تعكس ظواهر الاقتصاد التى يستند اليها المجتمع .

يقول انجلز (ان القوى المنتجة وعلاقات الانتاج والتطـــورات الاقتصادية هى التى يتكون منها بنيان المجتمع السفلى الذى يقوم عـــلى أساسه الصرح الضخم للبنان العلوى المكون من المثل الفكرية . فالمؤسسات السياسية والقانونية والعقائد الدينية والأخلاق والآداب تعكس فيما تشرعه لنفسها من نظم وما تتخذه من قرارات وما تبتعده من انتاج ظواهر الاقتصاد التى يستند اليها المجتمع) . والبنيان السفى الاقتصادى ـ عنـــد الماركسيين ـ يمثل المستوى الذى تصل اليه القوى المنتجة ، كما يمثل فى نفس الوقت العلاقات التى تنشأ بين الناس خلال تقدم الانتاج ، تلك العلاقات التى تتحدد حسب (أشكال الملكية) والقوى المنتجة تصطدم فى تكاثرها (بأشكال الملكية) التى تصبح عقبة تعوق تطور تلك القـــوى . ويستثير التناقض الاقتصادى والاجتماعى الصراع بين الناس ، ذلك الصراع الذى يشحن التاريخ بالأحداث والأفكار . هذا الصراع الذى هو تعبير عـــن التصادم بين القوى المنتجة وبين أشكال الملكية ينعكس فى المحيط الأعلى للمثل والفنون) .

انها نظرة واحدية مشدودة على وتر واحد لا تكاد تتركه حـــتى تعود اليه فهم يقولون (ان الفن يتطور كما يتطور المجتمع لكنهمـــا لا يتطوران على وتيرة متسقة . وقد ترتقى بعض فروعه وتزدهر وتسبق الفروع الأخرى فى مضمار التقدم . ولابد أن تكون هناك أسباب موضوعية لمثل هـذا التغير نابعة من أصل اقتصادى تمتد أبعاده على قدر متفاوت)[1] .

١- (الجمال فى تفسير الماركسى) بقلم عدد من الفلاسفة السوفييت . ترجمة يوسف الحلاق . دمشق ١٩٦٨ .

والحق أن فكرة البناء السفلى (الاقتصاد) والتركيبات الفوقية (الدين والآداب والفنون) المترتبة على نمط الاقتصاد السائد والمتعشية معه فكرة خاطئة لأن التاريخ شاهد على أن الأفكار هى التى تحرك المجتمع وهى التى تطالب بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالاصلاح الاقتصادى أو السياسى ... ذلك ما صنعته أفكار الأنبياء والمصلحين والفلاسفة والأدباء ، الأفكار هى البناء السفلى المحرك وليس العكس ، ونتسائل دهشين : هل غيرت أفكار ماركس المجتمع يوم استعيرت وأتيح لها التنفيذ فى روسيا القيصرية أم أنها إفراز من إفرازات مجتمع زراعى لم يتنبأ ماركس - يوم أن جلس وتنبأ - بأن ستظهر الشيوعية منه إذ رأى بعين نبى آخر الزمان أنها ستظهر من دولة صناعية مثل انجلترا .. وماذا يقول الماركسيون عن جوركى على ما فيه من تعدد واختلاف مضامين وصور معالجة وتصوير للترف حينا وللبؤس حينا آخر مع أنه ظهر فى حقبة واحدة من العصر القيصرى :؟

إننا لا نرى فى روائع الأعمال الأدبية إلا تعبيرا عن نفسها والفنان الصادق هو ذلك الفنان الذى يجعل من عمله الفنى عالما قائما بذاته وهو لا يقصد أبدا أن يدعو الى أفكار وعقائد إذ لو فعل ذلك لدخل فى زمرة الكتاب والفلاسفة والباحثين . واذا وردت بعض الأفكار فى عمله فانها تأخذ طابعا عينيا متجسدا يفقدها صرامة الفكرة وقطعيتها .... ومن ناحية أخرى الفنان الأصيل غير متعصب أو منحاز وانما هو عين مفتوحة على الحياة بكل ما فيها وما تزخر به ، والمضمون فى الفن الأصيل منسوج فى ثوب الصورة فليس ثمة مضمون وصورة وانما (صورة) فحسب على عكس ما يرى - بليخانوف - لصالح الماركسية أن المضمون الايدولوجى سابق على القالب ، ولماذا يتوقف الماركسيون عند الأعمال الأدبية وحدها ...

بل ولماذا يختارون أعمالا أدبية معينة (أعمال بلزاك مثلا) ؟ لماذا لا يستديرون ناحية الأعمال التجريدية فى التصوير والنحت ليحدثونا عن ذلك المضمون الايدلوجى المزعوم ان استطاعوا ؟ باختصار شديد نظرة الماركسية للقيم تقوم على أنها أحد التركيبات الفوقية للبناء المادى الاقتصادى ، وهى نظرة تلغى من حسابها الفرد الواعى المتأمل الذى يشغف بموضوعات الحق والخير والجمال لذاتها وبغض النظر عما ينتج عنها من منافع ، هى نظرة متطرفة الموضوعية لأنها موضوعية تقوم على اعتبار الكيان المادى للمجتمع لا المجتمع كله وبكل ما يزخر به من حضارة وثقافة ودين ٠

ونحن لا نرجع المضمون والشكل فى الفنون الى التغييرات الاقتصادية والاجتماعية ٠ يرى الماركسيون أن الأعمال الفنية أو بالأحرى الاعمال الأدبية نتاج ما يلحق المجتمع من تغيرات فى البناء الاقتصادى ومن ثم فى البناء الاجتماعى لمجتمع ما ، شأن الفن فى ذلك شأن سائر الظواهر الروحية ، ويرون أن الخاصية التاريخية والمميزة الجوهرية فى نظرات ماركس وانجلز الى الطبيعة والمجتمع والفن تتلخص فى أنه كان عليهما خلال نضالهما الذى لا هوادة فيه ضد المثالية فى كافة اتجاهاتها وصورها أن يبرهنا وقد برهنا بشكل قاطع على أن للظواهر الروحية فى حياة الناس ـ مهما تكن معقدة ومتعددة وخاصة ـ أسسها فى ظروف الحياة المادية الاقتصادية ٠ وقد اتجه حل ماركس وانجلز لموضوع الجمالى الى الكشف عن الأسس الحياتية المادية والعملية التى نشأ عنها الجمال (١) ٠

وما يقال عن الجمال يقال عن الأخلاق ، فالأخلاق تابعة للبناء الاقتصادى وهو قاعدة الهرم أو المستوى السفلى ... انها نسبية دائما ...

١ـ (الجمال فى تفسيره الماركسى) بقلم عدد من الفلاسفة السوفييت ترجمة يوسف الحلاق ٠ مراجعة أسماء صالح ص١٥٠ـ١٥١ ٠

فتلك أخلاق بورجوازية وهذه أخلاق بروليتاريا ، ومنطلق ماركس مادى ، يقول (ليس المثالى بالنسبة لى الا العالم المادى يعكسه العقل الانسانى ويترجمه الى أطر فكر) .

والوعى تابع للمادة وهو فى حركة دائمة ، وقد كتب انجلز يقول (لا شىء يقوم قياما مستمرا مطلقا فى نظر الفلسفة الجدلية ، لا شىء مطلق أو مقدس) .

وانجلز يعبر عن رفضه للأخلاق المطلقة بقوله (عندما ندرك أن كل طبقة من طبقات المجتمع الحديث الثلاث : الارستقراطية الاقطاعية ـ البورجوازية ـ البروليتاريا تمتلك أخلاقا خاصة بها نستطيع فحسب أن نصل الى نتيجة واحدة هى أن الناس بوعى أو بغير وعى يستمدون مثلهم الأخلاقية فى النهاية من العلاقات العملية التى يقوم عليها وضعهم الطبقى ـ ومن العلاقات الاقتصادية التى ينفذون داخل اطارها عمليات الانتاج والتبادل ..... .

لقد امتلكت كل المجتمعات التى عرفت الملكية الخاصة هذه النصيحة الأخلاقية : يجب ألا تسرق ... هل تعبر تلك النصيحة عن أخلاق أبدية ؟ ليس ذلك صحيحا فى مجتمع لا توجد فيه كل دوافع السرقة ولا يسرق على أرضه الا المتطرفون أو المجانين ، وهو أمر مضحك جدا أن نجد واعظا يردد : لا يجب أن نسرق ، لذلك فاننا نستبعد كل محاولة تعرض علينا أى قطع أخلاقى يظهر فى صورة قانون أخلاقى أبدى نهائى وثابت لا يتغير على أساس أن للأخلاق مبادءها الثابتة التى تعلو التاريخ والفروق بين الأوطان ، اننا على العكس نؤكد أن كل النظريات الاخلاقية انما هى فى التحليل النهائى ناتج للظروف الاقتصادية

المسيطرة لوجدت نفسك أمام تلال من الزيف والفساد وضعف المسئولية حتى لو اختفت الطبقة الرأسمالية وتحققت الشيوعية ، وقد عرفنا ذلك فى المجتمع الذى طبق فى عصرنا نظرية ماركس ، فان قلت ان الروس قد (أخذوا) النظرية وأدخلوها فى بلادهم ادخالا ولم تحدث نتيجة لنمو الصراع الطبقى وحسب مقتضى الجدل ... وكذا الأمر بالنسبة للصين أجبتك بأن حديثك هذا هدم للنظرية من أساسها لأن الماركسية فى بنائها النظرى نفسه وضعت الأمرين :

أ ـ الجدل وتطور الصراع الطبقى الى حد حتمية " انبعاث " الشيوعية .
ب ـ العنف والاتجاه الى التغيير بالقوة [1] ، على ما بين النقطتين أ ، ب من تعارض . ويوضح لنا هذا مقدار اليتوبيا والتفكير الحالم غير الواقعى فى تصور امكانية قيام مجتمع بدون صراع .

وهنا نذكر أن الهجوم على الفلسفة الكانتية الأخلاقية قد ورد كثيرا فى كتابات ماركس مع أن الكانتية الأخلاقية والماركسية مشتركتان فى شىء واحد هو حسن النية المفرط أو الروح غير الواقعية ، فكانت Kant يتصور وجود آمر أخلاقى واحد لدى الجميع وارادة خيرة تحث على الواجب وفعله بمعزل عن العواطف والرغبات وكافة الدوافع وكذا عن نتائج الأفعال ، وهو الأمر الذى أوقع الكانتية فى صورية وتزمت شديدين .

نظرة ماركس وانجلز الى الاسرة :

نظر ماركس وانجلز الى الاسرة وهى المكون الأخلاقى الأول على أنها وحدة اقتصادية تعتمد على اهتمامات الرجل ، ولأن النساء والاطفال يعتمدون اقتصاديا على الرجل فانه يلجأ دائما الى استغلالهم ، ولذا فانه من الضرورى أن نحطم الأسرة فى المجتمع الجديد المطلوب بعثه ، ولكى

١ـ نجد هذا حتى فى كتابات الشباب نفسها (الكتابات الاقتصادية الفلسفية لماركس .

نحرر النساء من التحكم الاقتصادى ولكى نسمح لهن بما يسميه ماركس وانجلز العمل الانتاجى فانه يجب اعفاؤهن من العناية بالأطفال منذ ولادتهن .

والحق أن ماركس وانجلز مخطآن تماما فى فهمهما لطبيعة الأسرة، انها وحدة بيولوجية وليست اقتصادية ، وهذه حقيقة لا يناقش فيها بيولوجى أو اجتماعى ، هذا فضلا عن وجود علاقة نفسية عميقة وأساسية بين الوالدين وبين الأطفال (١) ، والعمل الانتاجى الذى يتم على حساب الأطفال انما هو انتاج سىء لأن الأطفال سيصبحون بعد سنوات قليلة قوة فعالة فى النشاط الانتاجى .. ولا يكون ذلك الا بتنشئتهم والعناية بهم تلك العناية التى لا تستطيع القيام بها أى مؤسسة من مؤسسات الدولة .

ولم يقع ماركس وانجلز فى هذا الخطأ الفاحش الا لأنهما جعلا القيم أمرا تابعا ولم يجعلاها قوة قادرة على التشكيل والخلق ... لقد أعطيا البناء الاقتصادى دورا كبيرا وأساسيا فغاب عنهما بذلك فهم الطبيعة البشرية .

لقد فات ماركس فى نظريته عن المادية التاريخية فيما يرى ايريك فروم أن الانسان اذا كان يتأثر بشكل النظام الاجتماعى والاقتصادى ، فهو كذلك يشكل هذا النظام ، وقد اعترف انجلز فيما بعد أنه اذا كان لم يعُن هو وماركس العناية الكافية بالنظر فى أثر العوامل الثقافية فى أساس المجتمع الاقتصادى وانما عنيا فقط بأثر الظروف الاقتصادية فى تطور التاريخ فمرد ذلك الى حداثة نظريتهما وجدتها ... ثم يمضى " فروم " فيقول ان ماركس لم يقدر كل التقدير ما فى الميول البشرية من تعقيد مما أدى به الى الوقوع فى ثلاثة أخطاء خطيرة . وأول هذه الاخطاء اهماله العامل

1- Walker ' Kenneth ' Meaning and Purpose Pengcin Books.

الخلقى عند الانسان اذكان يفترض أن عامل الخير فى الانسان يظهر ويكون له أثره فى الحياة الاجتماعية من تلقاء نفسه عندما يتم الانقلاب الاقتصادى فى مصلحة الشعب . ولم يدرك أنه يستحيل على قوم لم تُصلح نفوسهم خلقيا أن ينشئوا مجتمعا أفضل (١) .

نظرة ماركس وأنجلز الى الانشاء الفنى والى الأخلاق تقوم على ربطهما بالأساس الاقتصادى والاجتماعى السائد فى هذه الفترة أو تلك . فى الجنة القادمة حتما وهى الشيوعية سوف يكون الفن والأخلاق تعبيرا عن آمال وهموم البروليتاريا ، والفنان ملزم بالتعبير عن موضوعات خاصة أما الاخلاق فقد كان ماركس على درجة من حس النية أو بتعبير أدق سذاجة التصور ، وهو فى ذلك يذكرنا بالفيلسوف الذى يعارضه كثيرا : اما نويل كانت .

أقام كانت أخلاقه على أساس وجود آمر أخلاقى مطلق يحض الارادة الخيرة لدى الناس جميعا ، ولم يلتفت لحظة واحدة الى اختلاف الناس فى تقديرهم للخير وفى درجة مقاومتهم لنوازع السوء والشر ، فوقع فى صوريه عابه عليها بحل نقاده ، وما وجدنا لدى كانت بعدا اجتماعيا أصيلا بمعنى معايير أخلاقية موضوعية يضعها عقل أو عقول أرقى فيلتف الناس حولها وينصاعون طواعية للعمل بمقتضاها وانما وجدنا تعبير (حس مشترك) يكاد يغرى البعض بتصور وجود بعد اجتماعى موضوعى لدى كانت فى أخلاقه ولكن سرعان ما ظهر لنا أن هذا الحس المشترك يقوم على البنية الذاتية لهذه الاخلاق فافتراض وجود آمر أخلاقى واحد لدى الناس جميعا هو ما يشكل عند سائرهم ذلك الحس المشترك بالأخلاقية .

وها نحن قد وجدنا ايريخ فروم وهو معروف باعجابه وتأثره

١ــ اريك فروم (المجتمع السليم) ترجمة محمود محمود ص ١٧٥ــ١٧٦ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ .

بكتابات الشاب لدى ماركس (١) ... وجدناه يأخذ على ماركس حسن نيته - على حد تعبيره - اندفاعه القطعى - فيما نرى نحن - فيتصور أن الخير يظهر من تلقاء نفسه بمجرد حدوث الانقلاب الاقتصادى لمصلحة الشعب ، وأذكر بأن المسألة لا ترجع الى حسن نية وانما ترجع الى انغماس فكر ماركس كليا فى مقولة الصراع فى الوجود - فرضتها نظرية التطور ونظرية مالثوس عن السكان حديثا ونظريات يونانية أهمها نظرية هيرقليطس قديما ... أقام ماركس نظريته على وجود صراع طبقى حتمى ولم يتصور وجود قدر من الانسانية المشتركة بين العامل وصاحب العمل ... تلك قطعية ونظرة واحدية مغلقة هى السبب وراء كل تطرفاته الفكرية وأخطائه التى ذكرنا لفروم أحدها ونذكر له الآن خطأين آخرين : الخطأ الثانى الذى وقع فيه ماركس وهو نتيجة أيضا لاعتقاده فى طبيعة الخير عند الانسان ، هو اعتقاده فى تحقيق الاشتراكية وظهور المجتمع السليم بعد وقت قصير . ولم يدرك امكان ظهور بربرية جديدة فى شكل حكومة استبدادية شيوعية أو فاشية (يعنى حكومتى ستالين وموسولينى) ونشوب حرب هدامة بدرجة لم يسبق لها فى التاريخ مثيل ، وهذا الادراك الخاطىء الذى لا يطابق الواقع كان سببا فى كثير من الأخطاء النظرية والسياسية فى تفكير ماركس وانجلز ، كما كان أساس انهيار الاشتراكية الصحيحة الذى بدأ بعهد لينين .

والخطأ الثالث الذى وقع فيه ماركس هو اعتقاده بأن اشتراكية أدوات الانتاج ليست شرطا " ضروريا " فحسب لقلب المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى متعاون ، ولكنها كذلك شرط " كاف " وحده لاحداث هذا الانقلاب . وتدل هذه العقيدة الفاسدة على أن ماركس كان يبالغ فى تبسيط الأمور وفى التفاؤل والتعليل العقلى لمستقبل الانسان ومصيره . وكما أن فرويد اعتقد أن تحرير الانسان من التحريم الجنسى الصارم الذى لا

---

١ - انظر مقدمة " فروم لكتاب ماركس " (الكتابات الفلسفية الأولى) .

يتفق وطبيعة الانسان الحيوانية يؤدى الى الصحة العقلية ، فكذلك اعتقد ماركس أن التحرر من الاستغلال الاقتصادى يؤدى من تلقاء نفسه الى انشاء مجتمع حر متعاون • كان ماركس متفائلا فى الأثر المباشر الذى يحدثه تغير العوامل البيئية كما كان كتاب دائرة المعارف فى القرن الثامن عشر ، ولم يقدر قوة الميول الانسانية التى لا تقوم على أساس من العقل ، والميول الهدامة التى لم تضعفها التطورات الاقتصادية بكافة صورها ، لم يقدر هذه الاتجاهات فى طبيعة الانسان حق قدرها (١) ذلك هو حديث اريك فروم أحد دعاة الماركسية الجديدة وأحد منظرى التحليل النفسى وعلمائه ، ولنا وقفة عند العبارة الأخيرة : (لم يقدر ماركس قوة الميول الانسانية التى لا تقوم على أساس من العقل) أخلاق التعاطف مثلا وتلك مسألة تقع فى نطاق غير العقلانى ، لقد قال لنا فى الخطأ الماركسى الأول ان الانسان يتأثر بشكل النظام الاجتماعى والاقتصادى لكنه أيضا يؤثر فى هذا النظام ويشكله • والقوى غير العقلانية من أهم العوامل المؤثرة •

وفروم يشير الى الميول الانسانية اللاعقلانية التى تعد من أهم العوامل القادرة على تشكيل النظام ، ويتحدث عن (الميول الهدامة التى لم تضعفها التطورات الاقتصادية بكافة صورها) وهذه الميول السيئة الشريرة هى التى أدت ــ بعد التطورات الاقتصادية ــ الى ديكتاتورية الستالينية فى روسيا والى ديكتاتورية الفاشية فى ايطاليا ، ونضيف أنها أدت الى كل ما حدثنا عنه جورباتشوف من فساد وانهيار اقتصادى وأخلاقى (٢) •

ومهما كان من أمر الانتقادات التى وجهت الى الماركسية من زاوية جعلها القيم والدين أمورا تابعة أو بناءات فوقية للبناء الاقتصادى فاننا نود الاشارة الى أهمية التربية الخلقية فى النهوض بالأمم والأفراد نفسيا واجتماعيا واقتصاديا غير متجهين الآن الى أى واقع آخر غير واقع

١ــ اريك فروم (المجتمع السليم) تعريب محمود محمود ص ١٧٧ •

٢ــ جورباتشوف (البيروسترويكا ــ اعادة البناء) ص دار الشروق •

التطبيق الماركسى فى الاتحاد السوفيتى .

يقول جورباتشوف واصفا واقع الشخصية السوفيتية بعد سبعين عاما من التجربة الشيوعية التى لم تعن بالتربية الخلقية (اننا نجد أن الناس غير المخلصين يحاولون استغلال ميزات الاشتراكية ، وهم يعرفون حقوقهم فحسب ، ولكنهم لا يريدون أن يعرفوا واجباتهم ، انهم يعملون بتكاسل ويتهربون ويتعاطون المسكرات بكثرة ، وهناك قلة من الناس بالفعل كيفوا القوانين والسياسات القائمة مع مصالحهم الخاصة الأنانية وهم لا يعطون المجتمع سوى القليل ، ولكنهم مع ذلك يعملون على أن يحصلوا منه على ما يمكن ، بل وحتى على ما يبدو مستحيلا ، وهم يعيشون على دخول لم يتكسبوها ، ... وتكشف الجلاسنوست ـ أو العلانية أن شخصا ما يحظى بامتيازات غير مشروعة ، ونحن لم يعد بامكاننا أن نتسامح حيال الركود أكثر من ذلك [١] .

واقعية صمويل الكسندر (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) :

ان الآمر الجمالى ليس مطلقا وانما يختلف من فرد الى آخر حسب درجة الثقافة العامة ومستوى الالمام بالأعمال الفنية وحسب مستوى الذوق وعمق الاحساس ، ونقول نفس الشىء بالنسبة للآمر الأخلاقى الكانتى والواقع أن الأخطاء الكانتية فى نظرية القيم تمثل أحد أسباب نشأة نظريات أخرى وقعت بدورها فى أخطاء فادحة ، لقد عرفنا نظرية ماركس وانجلز وهما يعبران كثيرا عن سخطهما وضيقهما بفكر كانت ويعدانه فكرا رجعيا منتميا للطبقة البورجوازية معبرا عنها ، وعرفنا نظرية جان بول سارتر وهو يرفض القيم القبلية الكانتية ، ويجعل الفرد صانع معاييره واختياراته .

كذلك عرفنا فلسفات تحظى بدرجة عالية من الواقعية وقد

١ـ جورباتشوف : البيريسترويكا . دار الشروق .

عبرت بدورها عن رفضها للصورية والذاتية الكانتية ، من بين هـــــذه الفلسفات فلسفة صمويل الكسندر ، يرى الكسندر أركانت كان مخطئـــا اذ وضع معيار الخيرية فى سمات صورية للارادة ... كان معنيا بتحريـــر الارادة من نتائج الفعل حتى أنه فشل فى ملاحظة أن الارادة فى النهاية موجـــود تجريبى وهى بهذه الصفة لا تقبل مبادىء صورية أولية تفرض عليها (١) ، وفى فلسفة الكسندر الأخلاقية ليس ثمة قهر لعواطفنا وارادتنا لأنها مادة الخيريـــة والسلوك كما أن الألوان والأصباغ مادة الجمال الفنى ، وعنده ثمة عاطفـــة ضابطة ومنظمة لسائر عواطفنا ورغباتنا ويأتى سلوكنا النهائى متسقا مـــع الخير المعيارى Standard Goodness وتلك العاطفة الضابطـــة (أو الدافع الاجتماعى) لا تشكل عبئا ثقيلا علينا لأنها من صميم طبيعتنا ، فليس الواجب قانونا أزليا سابقا على التجربة وانما هو نابع من (أن للفرد وهو جزء فى المجتمع دورا فى كل حياة المجتمع العضوية واذا كان الشخـــص الخير يشعر بالزام الأخلاقيات له فان الشرير وحده هو الذى يعانى احساسا بالاكراه) (٢) وامعانا من الكسندر فى الابتعاد عن الصورية الكانتية نجده يرفض الغيرية المطلقة ، وقولنا ان الأخلاق سلوك اجتماعى لا يعـــنى أن السلوك الخير غيرى فالفرد عضو فى المجتمع كالآخرين وجزء من دوره أن ينمى نفسه (٣) .

والكسندر يعارض الأخلاق الكانتية المطلقة لكنه لا يضع نسبيـــة مطلقة بديلا عنها ــ كما هو الأمر لدى سارتر وماركس ــ فهو يعارض رفـــض الاستثناء ، فليس ثمة تلك القاعدة الأخلاقية التى لا تسمح بالاستثنـــاءات فالقاعدة (لا يجب أن تكذب) قد يسمح للطبيب بتجاوزها اذا كان فى كذبه

1- Alexander (Samuel) Spase, Time and Deity VII p. 279.

2- Alexander (Samuel) Beauty and Other Torms of Value. p. 255.

3- Ibid.

انقاذ لمريضه ، وليس ثمة قانون أبدى للخيرية ، فعواطف النـــــاس وحاجاتهم تتغير من عصر لآخر وحسب المجتمع الذى تجد فيه اشباعاتهـــا ، وفى الأخلاق جانب لا يتغير من عصر لآخر أو من فرد لآخر ، ولذلك ليـــس ثمة درجات فى الفضيلة والسلوك الفاضل فاضل أينما وكيفما يوجد فالفلـــس من أرملة احسان مثل بناء مليونير لمستشفى لكن عواطف الناس وحاجاتهم وظروفهم تتغير من عصر لآخر وحسب المجتمع الذى تشبع فيه دوافعهـــم وعواطفهم مما يسمح بامكانية التقدم فى السلوك الأخلاقى ويجعلنا نقـــول مع الكسندر (ان الخيرية مع أنها لا تختلف درجة الا أنها قد تختلـــف ضخامة وعظمة Largeness and greatness (١) .

وفى مجال الجمال يتمسك الكسندر بنفس فكرته عن الحكـــم المعيارى ، فالدافع الاستطيقى المعيارى هو حس (أو دافع) الاشخـــاص الأكفاء ، والأشخاص الأكفاء هم أولئك الذين يمتلكون الدافع الاستطيقـــى المعيارى ، وهى اجابة تبدو دائرية ، لكنها ليست كذلك فى نظر الكسنـــدر لأن الحكم المعيارى انما ينشأ من تعاون الأشخاص الأكفاء الذين يسقطـــون أحكام غير الأكفاء وينظرون الى العمل الفنى الذى يرضيهم على أنه قبيـــح استطبقيا ، وعلى رأس هؤلاء الاشخاص الأكفاء الفنانون أنفسهم الذين يـــرى الكسندر أن مهمتهم هى أن يوضحوا لنا ما هو واقعيا جميل وما هو غيـــــر جميل ، أن يقيموا معيار الذوق ، ولا يستطيع شخص واحد مهما كان فنانـــا كبيرا أن يزعم أنه هو الذى يحدد الحكم المعيارى لكنه ممثل فحسب للمعيار الاستطيقى ، وهو موقف شبيه بمفهوم أرسطو عن (الرجل الحكيم) الـــذى تتحدد الخيرية بناء على حكمه بينما فى نفس الوقت خيريته هى الـــتى تجعلنا نعده حكيما .

واذا لم يشبع العمل الفنى الدافع الاجتماعى الانشائى لدى الفنـــان أو غيره فهو ليس جميل جمالا واقعيا وانما جماله ظاهرى ... سطحى ، وتلـــك

1- Ibid pp. 260-261.

الفكرة تتناغم مع فكرة أخرى صدرت عن الكسندر وهو بصدد الحديث عن ارتباط الجمال بالخير • يقول (من حق الفنان أن يعالج أية موضوعات ، لكن لو جاء عمله الفنى مثيرا فى المشاهد رغبات أو أفكار متعلقة بالموضوع المادى فانه سيكون فنا مزيفا وأخلاقا سيئة فى نفس الوقت ... قد ينجح بعض الفنانين فى تقديم موضوع من موضوعات الخلاعة Pornographic Subjects تقديما جماليا ودون اثارة أحاسيس مادية (غريزية) لكن الصعوبات التى تقف حجر عثرة أمام معالجة الفنان لمثل هذه الموضوعات جماليا كبيرا الى حد أن الفنانين يحجمون عن معالجتها لا لأن الفن مساو للأخلاق ولكن لأن الموضوعات الحسية تقف عقبة فى طريق تحقق الجمال الخالص (١) •

وكل تلك أفكار تحمل درجة كبيرة من الواقعية لكن لنا أن نلاحظ أن تعاون الأكفاء ــ سواء فى مجال الأخلاق أو فى دائرة الفن ــ أمر ليس حتميا ، فالأحكام الأخلاقية والجمالية تحتاج الى معرفة بالطبيعةالبشرية ، وهذه المعرفة أمر ليس موضع اتفاق قاطع فاذا ما حدث اختلاف فى تحديد هوية الطبيعةالبشرية فى هذا الجانب أو ذاك ترتب على ذلك اختلاف فى الأحكام والمعايير ، وكان لابد من وجود أحكام أساسية (دستورية) وأحكام أخرى تتعلق بالأمور الهامة التى ينبنى عليها صلاح أو فساد الكون ... وكان لابد من أن يكون مصدر النوعين من الأحكام جهة أعلى من مستوى الفكر البشرى ، ويبقى بعد ذلك للأكفاء أو للصفوة (الاجتهاد) على ضوء الأحكام الدستورية لتحديد ما بقى من مسائل قليلة تركتها لنا القوة العليا العليمة علما مطلقا ، القرآن الكريم والحديث الشريف هما لطف الله بالبشر اذ أقاما لهم نوعى الأحكام المذكورين ، أما الاكفاء أو الصفوة فى الاسلام فهم أهل الحل والعقد العلماء بالقرآن وعلومه وبالحديث والفقه وأصولهما •

1- Ibid pp. 127-128.

ونلاحظ فيما اقتبسناه من صمويل الكسندر انه يقول لنا (اذا كان الشخص الخير يشعر بالزام الأخلاقيات فالشرير وحده هو الذى يعانى احساسا بالاكراه) هذا صحيح ، لكن الشرير اذ لا يتقبل الالزامات الأخلاقية انما يُقبل على أنواع من الاعتداءات على حقوق الخيرين أو يقصر فى واجباته هو نفسه ، لذلك نشأت القوانين الوضعية وحددت العقوبات ، لكن تلك من صنع بشر ويأتى الأشرار فيتمردون على صنع بشر مثلهم ويحتالون للتهرب من القوانين بل لعل بعضهم ـ اذا وصل الى مراكز السلطة ـ يعمل على صياغة قوانين جديدة أو مواد فى قوانين تساعده على إطلاق يده وحركته ، وهكذا شاعت الجريمة وانتشر الفساد فى مجتمعات بشرية يزعم بعضها التقدم والرقى ، وظهرت عروض لا أخلاقية تزعم أنها فن جميل وتتذرع بنظرية الفن للفن ، وليس من الفن عمل لا يرتبط بالخير والخلق سواء بطريق مباشر أو غير مباشر كما أنه ليس من الفن شىء يشوه الحقيقة لأن الجمال إبراز للحقيقة ودعوة هادئة رقيقة للخير ، والفنان الأصيل انسان منغرس فى جماعة وبيئة ولا يمكن أن يأتى فنه غير معبر سلبا أو ايجابا نقدا أو تأييدا لهذه الجماعة .

ولا يعنى رفضنا لأى إلزام للفنان بأن يعبر عن موضوعات بعينها ... لا يعنى هذا أنه هو نفسه غير ملتزم بواقع عصره ومجتمعه ... انه بفاعليته الحرة وانسانيته المتكاملة التى لا تفصل ـ فى صورتها السوية ـ بين الحق والخير والجمال ولا ترى بينهما الا ماهو وحدة واتصال وارتباط بمصدر واحد هو (**اللّه**) ... انه بهذه الفاعلية وتلك الانسانية المتكاملة يلزم نفسه .

الانسان العادى منا يبنى كل سلوكه ومواقفه على موقفه الميتافيزيقى ، على نوع ايمانه بالألوهية أو على موقفه الرافض غير المؤمن ، وما أحسب الملحد الا واضعا بديلا لا يسميه يأخذ عنه الحق والخير والجمال ، أما الانسان المسلم فهو وحدة فكر ووحدة سلوك ناشئان

من عقيدته ولا ينفصلان عنها ٠

واذا كنا قد عرفنا فى موقف صمويل الكسندر معارضته لموقف كانت من القيم واقترابا من النظرية الاسلامية فى القيم فكذلك يعارض كـــارل جاسبرز فكر سارتر ويعبر أيضا عن اقتراب من النظرية الاسلامية ٠

فكرة جاسبرز (١٨٨٣ ــ ١٩٦٨) عن الحرية :

يشيد جاسبرز بحرية الفرد فيرى أن وجودى هو عين حريـتى لكنه يربط بين حرية الفرد وبين حرية الآخرين (حريتى لا تتحقق الا على مسرح حريات الآخرين) ويجعل جاسبرز الحرية محصلة أطراف عدة : التلقائيـة والمعرفة والقانون ، فليست الحرية هى السلوك التلقـــائى The arbitrary action وان كانت التلقائية بعدا من أبعادهـــا ، كذلك تتضمن الحرية المعرفة (ان معرفتى بما هو ضرورى الحـــدوث لا تحررنى من الضرورة وانما ترفع ذاتى العارفة الى ما هو أبعد من مجـــرد الضرورة ، أن تكون ذاتى متضمنة : أن أفهم الأشياء التى يجب عـــلى فعلها ... هذا لحظة حرية ... حقا إن المعرفة لا تجعلنى حرا باطلاق ومع هذا فبدون المعرفة ليس ثمة حرية) ٠

كما تتضمن الحرية القانون ، وليس القانون عند جاسبرز ضـــرورة طبيعية لا يمكن بحال تحاشيها وما أنا الا خاضع لها ، وانما هى ضرورة المعايير ... معايير الفعل والدافعية أستطيع أن أستجيب لها أو رفضها ــ يقـــول جاسبرز (هذه المعايير ــ فى رأيى ــ مرتبطة بوضوح ، وفى إدراكهـــا وطاعتها أكون مدركا لذاتى الحرة ، مدركا لأشياء ثابتـــة Valid بالضرورة وان كانت غير ضرورية هى نفسها ... ولأن المعايير متطابقة مـــع ذاتى فاننى أشعر بأنها ثابتة يقينية بذاتها ... والحرية المتعاليـــة ــ الترانسندنتالية ــ التى أمتلكها بطاعتى معايير ثابتة ــ هى حرية فعالـة ايجابية بالنسبة الى ماهو مجرد معرفة سلبية وهى حرية محملة بنوع مـــن

الضرورة بالنسبة الى الأفعال الطليقة ـ العشوائية ـ وما فيها من نسبية جزافية (١) .

ونحن نتقبل تلك الفكرة أو على الأقل لا نرفضها ونستطيع أن نقول ونحن في مجال الأخلاق أن هذه الأطراف الثلاثة تتضح في أفعالنا : في الصدقة مثلا ثمة تلقائية أو ـ حرية ـ اذا شئنا التعبير الشائع ولا أحد يمارس عليّ ضغطا ساعة فعل الصدقة ، وفي نفس الوقت هناك معرفة بأمور عديدة تساهم في قيامي بهذا الفعل ، هناك معرفتي بقهر وجبروت الفقر والعوز ومعرفتي بضرورة الطعام والملبس لغيري قياسا على معرفتي بضرورتهما لي ، وأمام المسلم قبل ذلك وبعده المعايير التي يقدمها له القرآن والحديث ، يقدماها على صورتين :

أ ـ صورة مبادىء شاملة كلية مثل مبدأ (لا ضر ولا ضرار) (٢) وهو مبدأ يتجه الى أفعالنا جميعا ايجابا وسلبا : ايجابا بأن نراعي في أفعالنا ألا تكون مسببة لأذى لنا أو لغيرنا فنبتعد مثلا عن الكذب ، وسلبا بأن نتقدم بأفعال نرفع بها الضرر عن غيرنا فنرفع بالزكاة والصدقة الفقر والعوز عن الآخرين .

ب ـ هناك أيضا في الاسلام أحكام تطبيقية جزئية تندرج تحت هذه المبادىء الكلية تتسق معها ولا تنافيها لمحة بصر ، هذه الأحكام التطبيقية نص على كثير منها القرآن والحديث صراحة وترك بعضها للقياس ولاجماع الأمة وذلك افساحا لمجال الاجتهاد ومراعاة الواقع أحوال الناس المتغيرة ، هذا مع ضرورة العلم والاحاطة بالقاعدة الأصولية (لا اجتهاد مع نص) أي أنه حيثما يوجد نص من القرآن

١ـ 1- Jaspers : Philosophy VII.

٢ـ حديث شريف ـ حديث حسن رواه ابن ماجه والدار قطني ومالك وغيرهم ـ وروايته عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا ضرر ولا ضرار) .

والحديث فالاجتهاد مرفوض ، كما أن الاجتهاد يجب أن يتم باتساق مع النصوص أى مع القرآن والحديث ومع ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع ما رآه أو سمعه وسكت عنه لم يعارضه ...

ذلك أن الاصول كلها فى الاسلام بل ان كثيرا من الفروع - مثل أحكام الميراث - إلهية باعتبار أن القرآن والحديث كليهما من عند الله، ولا يعارض أى تفسير أو شرح نصا من نصوص الأصول ، والالهى ثابت لا يتغير مع تغير العصور والأماكن وانما هو للناس جميعا فى كل زمان ومكان باعتباره حق الحق الصادر عن واجب الوجود بذاته سبحانه وتعالى ...

على أن حديث كارل جاسبرز عن تضمن الحرية للتلقائية والمعرفة والقانون قد ذكرنا بما فى الافعال الاسلامية من ارادة حرة ومعرفة ومعايير أو أحكام ، فالقرآن والحديث يركزان على معنى حرية الفرد فى الاقتناع والفعل مع تذكيره المستمر بالثواب والعقاب - كما أنهما يركزان على ضرورة المعرفة والوعى بالوجود العام والوجود الانسانى الخاص - ثم يضعان معايير يشعر المسلم بأنها ليست مفروضة عليه وانما يتقبلها ويقبل عليها فى حب وينفذها فى رضى ذلك لأن نفسه بداية قد اطمأنت الى خالقها ... خالقه ... وآمن بأن (ربه) قد خلق الأحكام من أجل منفعة وصلاح البشر جميعا ، هذه المنفعة وذلك الصلاح لا يستطيعون تقديرهما هم أنفسهم ، ذلك أن أحدا منهم ليس هو الله . وما نقوله فى مجال المعايير الاخلاقية صحيح تماما فى مجالات الابداع الفنى والتذوق الفنى - فى مجال الابداع الفنى يتقبل الفنان المسلم أحكام الاسلام فى التصوير والنحت تقبل الراضى المقتنع لا المكره المضطر فينشىء انشاء راقيا فى موسيقى الألوان وفى موسيقى الارابسك وفى ألحان عذبة تنبعث مما تخط يداه من خطوط ... وما أحسب " حتى من يجهل " قراءة الخط العربى الا واقفا فى انبهار واعجاب واستمتاع (استطيقى) أمام لوحات هذا الخط ، تتملكه الصورة وقد عجز عن تملك المضمون .

أما بالنسبة لمن يحسن العربية فيدرك أمرين : يدرك أنه لا

محبد عن قراءة القران على تؤدة وتبين دفعا للتحريف والتغيير (ورتل القرآن ترتيلا ـ سورة المزمل) .

ويدرك أنه لابد للقرآن من أن يسطر فى ايضاح وتحقيق لأن (الخط لسان اليد ، وهكذا انبعثت قواعد الخط محاذاة لأصول مخارج الحروف فى جميع البلدان الاسلامية ثم استوى كما قالوا هندسة روحانية (١))

والمهم أن الخط العربى الجميل خاضع فى حب لقواعد وأحكام الاسلام .

وفى مجال التذوق الفنى يبتعد المسلم عن مشاهدة أعمال العرى Nude وعن الاستماع للمبتذل من القول حتى لو أطلق قوم على أعمال عرى وابتذال تسمية الفن .

لقد كان القرآن الكريم مثلا أعلى فى صياغته هو نفسه للنظم الجميل ، وإمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى انما كان يهدف فى نظريته عن النظم الى ايضاح اعجاز القرآن وذلك المستوى الشاهق من احتواء اللفظ وتضمنه وتحقيقه لكمال المعنى ، تلك نقطة ، أما النقطة الأخرى الهامة فيما نحن بصدده فهى أن تقرير القرآن والحديث لقضية الخلق والتوحيد قد جعل المسلمين يأخذون الحق فى كل شىء منهما ومما وضعاه من معايير وأحكام ، والا حدث وقوع فى تناقض اذ كيف يقوم فى نفس المؤمن توحيد لا يأخذ فيه بأحكام الواحد سبحانه .

وكان أن ربط علماء الكلام بين البلاغة ومعيارها وبين الحق المرتبط بالله ، سئل عمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ فأجابه ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك ، قال السائل ليس هذا أريد ، قال عمرو : فكأنك انما تريد تخير اللفظ فى

١ـ بشر فارس (سر الزخرفة الاسلامية) . من مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى ١٩٥٢ .

حسن إفهام ؟

قال : نعم . قال عمرو : انك اذا أردت تقرير حجة اللّه فـــى قلوب المريدين بالألفاظ الحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة من الكتـاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على اللّه جزيل الثواب (١) ، والجاحظ يقول عن الكلام البليغ (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عـن كثيره ، وما معناه فى ظاهر لفظه : وكان اللّه عز وجل قد ألبسه مـــن الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فاذا كـان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكيف صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربـة الكريمة (٢) فالجمال مرتبط بالمنفعة فى المدرسة الواقعية الاسلاميـة ، البلاغة مرتبطة بالنفع وتحقق الهدف وإظهار الخلق المرتبط بتقرير " حجة اللّه " ، وهى عند ابن المقفع (كشف ما غمض من الحق) .

وقضية (أعذب الشعر أكذبه) قضية باطلة لأن الصدق الفـنى لا يتم ولا يتحقق الا بأن يشعر الشاعر والأديب شعورا عميقا بما يصف .." بما يمدح أو يهجو ، والتكلف يعنى أن نفس الشاعر لم تعتنق الفكرة ولـم تعتقدها ولم تحياها فيأتى حديثه عنها باردا لا روح فيه ولا حياة ، وهـذا معناه أن الكذب لا يؤدى الى صدق فنى ، وانما يخبىء إفراط الصنعة عـن العين الخبيرة عيب افتقاد الصدق والشعور الحقيقى .

هذا عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه يثنى على زهير ويجعـله أشعر الشعراء فى رواية ابن عباس رضى اللّه عنه ـ حيث قال له عمر : هـل تروى لشاعر الشعراء ؟ قلت : ومن هو ؟ قال عمر : الذى يقـول

١ـ الجاحظ (البيان والتبين) جـ ١ ص ١١٤ .

٢ـ " " " " ص ٩٧ ، ٩٨ .

وأن حمدا يخلد الناس أخلـــــدا

ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت : ذاك زهير قال عمر : فذاك شاعر الشعراء ، قلت : بم كان شاعر الشعراء ؟ قال لأنه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا الا بما فيه (١) تجنب الوحشى والابتعاد عن المعاظلة مثل أعلى قدمه القرآن والحديث فى تعبيراتهما البينة الواضحة المشرفة فى كل لفظ أما الابتعاد عن المدح بما ليس فى الممدوح فصفة أخلاقية ضمن أخلاق كثيرة وزهير فى نظر عمر ابن الخطاب أشعر الشعراء لأنه صادق لا يكذب ، الصدق اذن معيار لجمال النص ولتحقيق صدقه الفنى ، كذلك اتجاه العبارة الى الدعوة الى الخير ونهيها عن الشر والمنكرات معيار من معايير الجمال ، انها (الكلمة الطيبة) التى يشبهها الحديث الشريف بالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

وليس معنى أن الكلمة مكلفة بالدعوة الطيبة تخليها عن عنصر جمال الصورة وخلوها منه ، كيف ذلك والقرآن اعجاز فى جمال الصورة حتى أن أى نقل لمعانيه الى أى لغة أخرى أو عرض هذه المعانى بتعبيرات عربية أخرى لا يغنى لحظة واحدة عن قرائته هو نفسه ، وانما القضية أن الاسلام قد نقل العرب من الاهتمام بالصناعة اللفظية الى الاهتمام بالمعانى العظيمة ، وخير من عبر من علماء البلاغة عن هذا هو عبد القاهر الجرجانى فهو يقول (ان هذا النظم الذى يتواضعه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكر) (٢) .

ولا نريد أن نتوقف فى هذا البحث عند عناية الأدب والنقاد

١ــ تاريخ النقد العربى للمرحوم طه ابراهيم .

العرب بمواءمة اللفظ لمعناه أو العبارة لمعناها وعند جمال الصورة أو النظم فذلك حديث آخر وانما أتوقف عند وضع الاسلام لمعايير للفن الجميل ، والقران الكريم ينفى عن نفسه صفة السحر وعن رسوله صفة الساحر (١) وهو فى نفس اللحظة يعلى من شأن الصدق والتعبير الصادق عندما تكون صورته وصياغة عبارته جميلة ، فالسحر قرين الكذب أما البيان والقرآن والحكمة فقرائن الصدق ، واقتران السحر بالكذب يرد فى قوله تعالى (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ــ سورة ص اية ٤) ٠

أما اقتران الصدق والحق بالقرآن فيرد كثيرا من ذلك قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد اللّه مخلصا له الدين ــ سورة الزمر آية ١ ، ٢) والقرآن الكريم يبغض فى الشعراء الكذب وحب الغواية ولهذا يحرص على التفرقة الحاسمة بين القرآن وبين أقوال الشعراء (انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ــ سورة الحاقة آية ٤٠ ، ٤١) ٠

فالاسلام يطالب أهل القلم بالصدق ، والصدق معيار أساسى لا تقلل من قيمته وأهميته حرية الفنان ، فليس النفاق والاتجار بالأدب والفن من الاسلام ، ومن الصدق الربط بين الحق والجمال والخير فليس العمل الذى يصور فحشا وعريا مثيرا من الخير وهو لذلك بعيد عن الجمال وعن الحق جميعا ٠

وقد التزم الشعراء والأدباء فى ظل الاسلام على الأغلب بأحكامه فاختفى أو كاد الغزل غير الحيى وتقديس الخمر ٠

والتزم الفنان المسلم بحكم الاسلام فى ألا يصور ماهو

١ــ عبد القاهر الجرجانى ــ دلائل الاعجاز ــ ص ٤١ ٠

ذو روح [١] وأن يتجه الى الشجر والنبات والخط العربى ، وكان أن نشأ من محصلة حبه للابداع الفنى وحبه لعقيدته واحترامها - إدراكا منه لعدم معادة هذه العقيدة لنشاطات النفس السوية - كان أن نشأ تجريد راق عرفناه في لوحاته ومنمناته على الخشب والقماش وفي فن الأرابسك Arabesque وفى الخطوط الاسلامية البديعة ، تقف أمامها بعينيك فتسمع أذناك موسيقى راقية ، ولقوة صدق أعمال الفن الاسلامى استطاعت أن تؤثر فى الفن الاوربى المعاصر [٢] .

ان نظرية القيمة فى الاسلام تقوم على واقعية نظرتها للانسان فهو جسد وروح ، وهو لا يستطيع أن يشكل القواعد الأساسية لخلقه لأنه ليس خالقا ، وأى أخلاق وضعية سوف تكون نسبية تعبر عن صالح جماعة أو طبقة بعينها أو تكون قاصرة عن الاحاطة بطبيعة الانسان أو أنها سوف لا تكون مرتبطة بمنطقة الضمير والذات الجوانية للانسان ، سوف تكون قواعد يحب كثير من الناس الخروج عليها .

الانسان جسد وروح ، والاكتفاء باشباع رغبات الجسد أمر يؤدى الى شعورالروح بالاستياء والملل والاحساس بالضياع والظلم وتلح على الإرادة فتحدث أحد المسارات التالية :

أ - الهروب من الملل بالاتجاه الى مزيد من الاشباع الحسى وتنويع

١- روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له : أنى أصور هذه الصور فأفتنى فيها ، فقال له : ادن منى فدنا - ثم قال: ادن منى فدنا حتى وضع يده على رأسه وقال: أنبئك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول :" كل مصور فى النار . يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه فى جهنم ، قال ابن عباس : فان كنت لابد فاعلا فصور الشجر وما لا روح فيه " .

٢- (تراث الاسلام) الجزء الأول . ترجمة د. زكى محمد حسن . مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٣٦ ص ١٥٥ .

للمجتمع فى هذه الحقبة ، ولأن المجتمع كان يتحرك دوما فى خصومات طبقية فان الأخلاق كانت دائما أخلاق طبقة ... طبقة عملت على تبرير سيطرة واهتمامات الطبقة الحاكمة ، أو يحدث شيء اخر : إذ تغدو الطبقة المسحوقة قوية بما فيه الكفاية فانها تعبر عن سخطها وعن اهتماماتها المستقبلية ... ونجدها أمام تقدم فى الاخلاق كما هو فى كل فروع المعرفة الانسانية ، لا أحد يشك فى هذا ، لكننا لم نتجاوز أخلاق الطبقة ... إن الأخلاق الانسانية الحقيقية التى تتجاوز عداوات الطبقة وتتجاوز تذكر واستدعاء هذه العداوات أمر ممكن فحسب فى مرحلة قيام مجتمع تغلب على هذه العداوات بل ونسيها فى الحياة العملية (١) "فحتى أخلاق الطبقة العاملة المظلومة مرفوضة اذن من قبل الماركسية لأنها ستكون أخلاقا قائمة على تذكر عداوات ، والصحيح هو أن تقوم الجنة الموعودة والمأمول تحققها فى دنيانا هذه وعندئذ لن نكون الا أمام أخلاق واحدة لأننا لن نكون أمام طبقات متعددة فى المجتمع الواحد ، وغاضى الطرف عما نجده فى النص وهو مجرد مثال من نغمة ثورية حماسية بعيدة عن التحليل الدقيق لماهية الأخلاق وما هى فى حد ذاتها وعن التفرقة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون وعن اظهار التوتر القائم بين هذين الطرفين ... نستطيع أن نقرر بعض الملاحظات :

- افتراض أن القيم بناءات فوقية Superstructures تتبع نوع ونمط الاقتصاد السائد وهو الافتراض الذى قام عليه ربط انجلز بين الأخلاق وبين الطبقة أمر بحاجة الى مراجعة ، فليست الأخلاق مثلا مجرد افراز للطبقة كما أن العصارة الهضمية افراز للمعدة ـ فيما عبر كارل فوجت ولا أشك فى أن الفكر المادى كان له أثر على نمط تفكير ماركس وانجلز ... الصحيح أن الأخلاق تقوم أساسا على مايجب أن يكون لأنك لو مضيت تأخذ الاخلاق مما هو كائن ومن نوع الطبقة

1- The Marx - Engels Reader, Edited by Robert C. Tucker. p. 726.

امكانات هذا الاشباع وهنا يزداد الملل فيلجأ الفرد الى أشكال أخرى من الاشباع الحسى ـ ربما خارج وطنه الاصلى ـ وهكذا تستمر دائرة الفراغ الروحى (عبر عن هذه الفكرة كارل جاسبرز فى كتابه الوضع الروحى للعصر) ٠

ب ـ يشكل عتاب الروح واحساسها بالضياع عبئا على الإرادة فتضعف ويتجه الكثيرون الى الانتحار ٠

جـ ـ الانتقال الى طرف الافراط فى ترك وهجر الاشباع الجسدى والانصراف الى رهبانية أو ما يسمى صوفية مفرطة ، وسرعان ما يصيب القاتل ـ قاتل رغبات الجسد ـ احساس بالكآبة والتوتر العصبى يدفع صاحبه اما الى العودة الى الافراط الحسى أو ممارسة أحد أشكال الانتحار ومنها مثلا الدخول فى عصابات جريمة وارهاب (المافيا مثلا) ٠

والاسلام حريص على أن يبقى الانسان فى خلقه فى المنطقة الوسطى حيث يقوم باشباع الرغبات والدوافع الفطرية (دافع الطعام والجنس وحب الجماعة ... الخ) وهنا نذكر قوله تعالى (ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن اللّه اليك ـ سورة القصص آية ٧٧) والى جوار هذا يقوم الانسان الوسطى بالاشباع الروحى ٠

أ ـ فهو مقبل على الله ٠٠٠ تلك القوة التى يشعر بأنها قوة وقدرة وأن ذاته تحبها وتجلها ، وللدكتور الحبابى عبارة طيبة لا بأس من اقتباسها هنا (الكائن البشرى مدفوع لأن يتنفس لأن له طبيعة فيزيولوجية وهو مدفوع أيضا بضرورة أخرى ـ لا تتجلى فى الفزيولوجيا ـ لأن يطمح لاكمال تشخصه وارضاء الارادة الالهية بالتقوى واتباع السبيل التى رسمها اللّه [1] وفى موضع آخر يقول ـ يمتاز الاسلام تميز قويا بـ Le Totalitarisme أى

١ـ د٠ عزيز الحبابى (الشخصانية الاسلامية) ص ٣٥ ٠

بالنزعة الى تسخير " الكل " لفائدة الوحدانية ، وبفضل ذلك كما يظهر يتغلب الاسلام على المتنافسات المأساوية بين ماهو فردى وما هو مجتمعي ... ما هو ديني وما هو غير ديني ... ماهو مقدس وماهو دنيوى (١) .

ب - والانسان الوسطى مقبل على الجمال : جمال الطبيعة والمخلوقات وجمال الاعمال الفنية الراقية ، يشجعه ويباركه قوله تعالى (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون - سورة النحل آية ٦) . وتعبير (ولكم) يعنى أن لديكم دافعا لحب الجمال مختلف عن دافع طلب الدفء والمأكل من الأنعام ولذلك فهى جميلة فى تعدد ألوانها وتباين أشكالها ورشاقة حركاتها واختلاف أصواتها حتى تشبع لديكم هذا الدافع .

وقد استجاب الفنان المسلم لتسجيل القرآن الكريم لمظاهر الجمال فى الكون كله (٢) فاتجه الى الانشاء الفنى الراقى ، وما كان احتفاله فى الخط العربى بآيات القرآن وكتابتها فى أشكال متعددة محاطة بالتلوين والتشجير والوحدات النباتية إلا اشباعا لمطلب العبودية والتوحيد الخالص ولدافع حب الجمال فى نفس الوقت ، وما كان اهتمامه بالتجريد فى التصوير وحذف التفاصيل الا اشباعا لهذا الدافع وتسليما بمطلب العقيدة من توحيد خالص وابتعاد عن التمركز فى تقديس البشر أو تبجيلهم - هذا الأمر الذى ينعكس على الاهتمام بالتفاصيل فى الفن الفرعونى واليونانى وبعد ذلك فى أوروبا قبل اتجاهها الى التجريد .

١- المرجع السابق ص ٥١ .

٢- للكاتب بحث بعنوان (الجمال فى القرآن الكريم) .